ولادة متعسرة

دعاء سيف

[ولادة متعسرة]

دعاء سيف

الطبعة الأولى ٢٠١٥.

تصميم الغلاف: عصام أمين

تدقيق لغوي: هبة النجار

تنسيق داخلي: إسلام علي

المدير العام : رباب الشهاوي

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: **2015/13279**

رقم الإيداع الدولي: **978-977-85153-9-8**

Alfouad_publishing@hotmail.com

facebook.com/fouadpublishing





ولادة متعسرة

(مجموعة قصصية)

دعاء سيف





❤ الإهداء ❤

إلى أبي -رحمه الله-

وأمي -بارك الله في عمرها-

اللذين طالما حلما باسمي مكتوبًا

على لافتة عيادة

أهديهما اسمي مطبوعًا على غلاف كتاب



القصة القصيرة هي شفافية الاتصال مع اللحظة

(دعاء سيف)

(١)

حالة ولادة متعسرة

لا مفر من أن أطردكَ لأحميكَ، وأنفصل عنكَ لأحافظَ عليكَ. أنا أشعرُ بكَ، كلما أوشكتَ على الإفلاتِ من أسري عدتَ لتسبح في ظلامي، يضيقُ عظمي برأسكَ، وتعجزُ قواي عن دفعكَ، نبضي يزدادُ صعودًا، والعرق يتفصدُ من جبينى باردًا، تنفسي صار أسرع، وجفناي يزدادان ثقلًا ووعيي تشوشًا. المولِّدةُ ترجوني أن أساعدكَ، والطبيب رشق الإبرة في ذراعي، وأصلني بسائل معلق، وقال إنه سيجعلني أستعيد طاقتي لدفعك، ما زلتَ بحاجةِ لمساعدتي وطاقتي.

دعني أتحسسك بداخلي، وأمرر يديّ عليك، بقاؤكَ بداخلي سيؤذيك، حياتكَ في خروجك مني، بقاؤكَ فى داخلي سيؤذيني، حياتي في خروجكَ مني، لو تعرف كم أحبك؟ كم أشعر بك؟ شعرت بك منذ نبتت خلاياك فى لحمي... آمنت بوجودك حتى قبل أن يجزم الطبيب أني أحملك، وعندما انتابني النزف أول عهدي بك جلسوا حولي مثلما هم الآن، وقالوا: "لا تبك... لا تحزني.. سيعوضك الله خيراً منه" وحدي آمنت بوجودك، وقلت لهم: إنى لأجد ريحك، فسخروا مني، حتى جاء البشير بنتيجة التحليل، وأكد لهم أنك لا تزال حياً بداخلي، وأن النزف لم يكن

إجهاضًا، وإنما كان منذرًا، وضعتُ الإنذار نصب عيني، واجتهدت لأحافظ عليك، رأيتك تكبر بداخلي يومًا بعد يوم، فرحت بكَ، وانتظرتك حتى جاءت اللحظة فخانتنى قواي.
لابد أن تخرج، أريد أن أراك، أن أسمع صرختك، أرى ضحكتك، أضمك إلى حضني، إلى جوار قلبي، ألصق خدك الصغير بخدي، أتلمس جلدك الرقيق بيدي، أطعمك لبني لتكبر، وأحميك حتى تستغني عني.
هل تسمعهم؟ يقولون إنهم يرون شعرك وأن رأسك انحشر فى عظامي، هل تُقَدر؟ قد يقطعون لحمي ليتسع مجرى خروجك، أوبعد كل هذا العناء يشقون بطني ليخرجوك خشية ألا يدركوك.
هل أنت خائف؟ هل اشتد بك الضيق وفاق احتمالك الكرب؟ هل طالك اليأس فقررت الاستسلام؟ أظننت أن ها هنا قبرك، وأن الظلام هو آخر عهدك بالحياة؟ هل فقدت أملك فى النور، ولم تعد تشتهي الهواء؟ هل وصلت الشدةُ إلى قمتها، والعسر إلى أقصى مداه؟
لا تخف... سأساعدك، هى صرخة، لا أملك من طاقاتي جميعًا إلا صرخة، سأمنحها لك، فإما أن تكون صرختى الأخيرة... أونحيا معًا.

٢٠٠٤/٩/٢٦

نشرت فى مجلة العربى الكويتية عدد يناير ٢٠٠٩

(٢)

أجمل صباح

كان غارقًا في نومه عندما جلسَتْ إلى جواره على السرير، تتأمل وجهه الساكن، تبحر في ملامحه، تمرر يدها فوق شعره الناعم، يحمل وجهها ابتسامة رضا، وعينيها نظرة إعجاب. فجأة... استيقظ، تبدلت ملامحها، طفت إلى عينيها عبرة، ثم اختفت، واكتسى وجهها بمزيج من حزن وغضب. هبّ الرجل النائم فزعًا، نظر إلى المنبه بجواره، ثم نظر إليها بغضب، وقال بصوت جاف قاس:

ـ "لم تركتني نائمًا حتى الآن؟"

لم تجب، لم يعبأ بها وأسرع قائمًا. قامت هي الأخرى، نادته:

ـ "إني.......إني....... أخونك!"

كانت الكلمة كفيلة بأن يتجمد في مكانه، ثم التفت إليها، وثبت عينين كالرصاص في عينيها. كانت فرائصها ترتعد، لكنها جاهدت رعبها، وثبتت أمام نظراته الحادة، وتجمدت ملامحها فما عادت تبدي أي تعبير أو إيحاء، فكر لدقيقة، ثم استدار ثانية غير عابئ بها، أدركت ما جال بخاطره، فقد ظنها تحاول استبقاءه بحجة قوية مفتراة، أسرعت لتقول:

ـ "أنا لا أكذب أو أمزح، إنها الحقيقة"

استدار هذه المرة إليها، وعيناه كفوهتين لبركان ثائر تتناثر الحمم الملتهبة منهما. ازداد رعبها وحاولت جهدها الثبات والمقاومة، تقدم نحوها لخطوة ثم أمسك بذراعها، أحست به يعتصرها في يده، وقبل أن يقذف بحممه في وجهها بادرته قائلة:

ـ "لقد وجدت بنفسي شجاعة مصارحتك، فكن شجاعًا بما يكفي لتسمع تفاصيل الحكاية"

جلس وقسوة العالم في ملامحه، وغضب الدنيا بعينيه، جلست هي الأخرى، صمتت للحظات، ونكست رأسها نحو الارض تحملق فيها، ثم رفعت رأسها، وبعينيها دموع تأبى أن تسيل، بدأت تتكلم، وقد أحست بأنها تخاطب نفسها لا تخاطبه:

ـ "انجذبتُ إليك منذ رأيتك، أحببت ملامحك، عشقت صوتك، أنفقت الأوقات أداعب صورتك في خيالي، وهبتك كل الأوصاف التي تمنيتها فيك، وأحببتك وهي لك، أسقطت على ملامحك كل ما أريد وأتمنى، لم أصدق نفسي عندما طلبت الزواج مني، حسبتُني ملكت العالم، عشت معك لحظات فاقت أحلامي وأماني، أدركت سعادة ما كنت أتصورها... لكنها كقطرات الندى تبخرت سريعًا عندما ظهرت الشمس، أدركت حقيقة أوهامي، أبصرت صورتك الحقيقية، رأيت الواقع الذي عشت قبله في

معزل عنه، عرفت أني ما أحببتك أنت إنما أحببت الصورة التي رسمتها في خيالي، أحببت مخلوقًا لا وجود له غير أنه يشبهك، أو أنك تشبهه، ما عاد يعني قلبي الحزين أيكما كان يجب أن يكون الآخر، أدركت أن الحب ما نهوى وما نعتقد، ما نتوهم ونتخيل. أدركت الحقيقة، أنك لم تخدعني، بل أنا التي خدعت نفسي، أنك ما كذبت علي، وما حاولت أن توهمني بصفات ليست فيك، بل أنا التي أسقطت عليك تلك الصفات وأحبتك فيها. لا ذنب لك سيدي؛ فالذنب كله ذنبي، أنا التي صنعت هذا البطل الذي أشقاني، أنا التي نسجت خطوط شخصيته لكني بعد الفزع الطويل وصدمة الحقيقة القاسية، لم أيأس، حاولت أن أعيد صياغتك لتطابق بطلي، لتكون حبيبي، جاهدت معك لكنك لم تتغير، أضنيتني بجفافك، بقسوتك كنتَ كل شيء عندي، وكنتُ آخر شيء عندكَ، أعطيتك كل وقتي... وهبتك عقلي وقلبي، أما أنت فبقيت كما أنت لا تدركني إلا اهتمامًا عابرًا وسط طموحاتك العظمى. راهنتُ معك بعمري كله ورفضتَ أن تدخل الرهان، كنتُ المقامر، وكنتَ المرابي.. لم تخسر شيئًا، لكني خسرت كل شيء"

كان الدمع السخين قد بدأ يسيل جاريًا بلا حدود، وبلا ضجيج، فلا هي تستجديه، ولا هي تمنعه... تكاد لا تشعر به، لا تشعر إلا بما يخرج من كيانها المتخم بما فيه، ثم بدأت ملامحها

المستقرة بعمق الآه في أعماقها تتبدل، تهيج، تثور، بدأ صوتها الهامس يعلو:

ـ "كان لابد من مخرج... لابد من بديل"

ثم استدارت إليه، واسترقت إلى عينيه نظرة بعدها زاغت عيناها، وقالت:

ـ "قل لي ماذا أفعل؟ ماذا كان بوسعي أن أفعل، وقد قتلت بداخلي أي أمل في تغييرك؟ توالي المواقف القاتمة بيننا ذبح كل بارق استجديته أن يأتي كي تتحول إلي، أن تصبح جزءاً من حلمي، أن تأخذ مسَا منه، فلما أضناني فؤادك الحجري، قررت أن أهرب... أهرب إلى غيرك"

هزته كلمتها الاخيرة، لكنه تجلد وظل ثابتًا كما هو، وأشاحت هي بوجهها عنه مرة أخرى، وعاد صوتها يهمس من جديد:

ـ "ولكي ألقاه كان لابد أن أتخلص منك، كنت أتحين ساعات غيابك الطويل عن المنزل، ساعات نومك، حتى وأنت معي لا تشعر بي ولا تدركني كنت أهرب منك، أهرب إليه لأنه يدركني ويشعر بي، لأنه يملأ فراغ واقعي الممتلئ بك. لقد وضعت الخطة كلها في رأسي وبدأت التنفيذ، عشت اللحظات السحرية التي عشتها معك أول الأمر، أتذكرها فتعطيني دفعة بها أعيش معك، ولكن أتكفي اللحظات لنستمد منها قوة على احتمال السنين؟ ظني أنها يومًا ستنفد، لابد أن تنفد لأنها أقل من أن

تبقى. قررت أن أصنع مثلها وفعلت، عشت معك أوبمعنى أصدق مع حبيبي أجمل لحظات، قلت له أحلى الكلمات، وسمعت منه أعذب الألحان، أدركته فيضًا من الأشواق يسري في كياني، وأدركني بحرًا يحتويه. كان شاطئي وكنت مرساه. ما أجملك يا تلك اللحظات!! وما أسعدك!! ما أذوقك يا خيالي الجامح كيف رويت بداخلي ظمًا!! لكنك كنت تأتي دائمًا لتقطع ما اتصل بين نفوسنا، لتنهي خلوات الأرواح العذبة، ما عدت أحتمل تطفلك على عالمي الجميل، كنت أضيق بك لكن عزائي أني سأعود إليه، ومضت الأيام أنسج خلالها اللحظات كما أشاء حتى أحسست بأني تفرغت من ذاتي، وصرت اثنتين، تمزقت، شطرت إلى نصفين، سيدة مغرقة في الواقع تجاريك وتعيش معك، وإن كانت مصدومة فيك، وأخرى مغرقة في الخيال تستخرج منك، بل قل تتصور فيك ما تريده فقط. آه! ألم أقل لك إن الحب ما نهوى وما نعتقد؟ أأدركت مع من أخونك؟...إني أخونك معك، أخونك مع حبيبي، وأخون حبيبي معك، سوى أني الآن ما أقدر أن أستمر في خداع كليكما، فأنا امرأة بوجهين.. ماعدت أقدر أبدًا أن أبقى قنطرة بين طريقين، لا أعرف لأيهما أنتمي وأدين بالولاء، إن العذاب الذي تكبدته بسبب هذا الازدواج هو الذي جعلني الآن أصرح بكل شيء"

صمتت للحظة كأنما تستنشق بعض الأنفاس تعينها على الاستمرار، ثم أكملت وعيناها تتحولان نحوه في بطء باستدارة لمائة وثمانين درجة:

ـ "أتدري ماذا كنت أفعل هذا الصباح وأنت نائم؟ كنت مع حبيبى، كنت أمرر أصابعي بين خصلات شعره وأتامل وجهه، أنتظره أن يصحو لأروي عيني من عينيه، لأرى ابتسامة ارتسمت على شفتيه من أجلي، لأسمعه يهمس لي " إن صباحًا رأى فيه وجهي هو أجمل صباح"

١٩٩٨/١٠/١٣

(٢)

جاءنا البيان التالي

وافانا مراسلنا في المنطقة المعزولة من الغابات بأنه بعد جهدٍ وعناء كبيرين تمكن من الوقوف على حقيقة الوضع في المنطقة، وتفاصيل الصراع الدائر منذ سنوات بين النملة والخنزير.

إذ علم مراسلنا من مصادر موثوق بها، وبالمعايشة الفعلية لحظة بلحظة للأحداث في المنطقة أن خنزيراً كبيراً كريه الرائحة وقف أمام جُحر النملة، فمنع عنها الهواء، وحال بينها وبين جلب الغذاء، فاضطرت لقرصه في باطن قدمه، لتبعده عن مسكنها، فثارت ثائرة الخنزير، إذ كيف تجرؤ النملة، وتفعل ذلك!؟ وقرر الانتقام، وساندته وأيدته كل الحيوانات الأخرى الكبيرة المتوحشة.

ووسط تأييد وحماية من تلك الحيوانات قام الخنزير البشع بدك جحر النملة، وتحطيمه فوق رؤوس النمل المتواجد بالداخل مما أسفر عن مقتل وإصابة ملايين النمل الأعزل، ولم يكتف الخنزير، بل منع من نجا من الصراخ وطلب النجدة، وحاصر مداخل ومخارج الجحور، حتى لا تتمكن أي نملة من الهرب أوالنجاة.

بينما وقفت باقي فصائل النمل تشاهد المأساة خائفة أو عاجزة، كاتمة غضبها بأمر عام من الحيوانات المفترسة، أو بأمر خاص من الملكات المختبآت في الأماكن السرية الجانبية المخصصة لحالات الطوارئ.

وبسؤال المحلل السياسي العام للغابة عن توقعاته لمستقبل الأوضاع في المنطقة أجاب بأن الوضع سيبقى على ما هو عليه، ولن يمكن القضاء على الخنزير والحيوان الآخر الكبير حتى تتأسد النملة، وتملك القدرة على الحُكم والبطش والزئير.

من إذاعة صوت الغابة قدمنا لكم آخر ما وصلنا من أنباء.

٢٠٠٢/٤/١٢

(٤)

على الهاتف الآخر

تهللت أساريرها رغمًا عنها، وانفرجت شفتاها عن ابتسامة إذ رأته قادمًا من باب المدرسة التي تعمل بها، تقدمت نحوه دون تفكير، بادرته بالسلام والسؤال، وتبرعت بتقديم "أي خدمة!؟" بادلها ابتسامتها بأخرى اعتادت أن تراها منه، لا تدري أيخصها بها أم هي طريقته المعتادة في الترحيب بالآخرين، أخبرها أنه قادم لتحويل أوراق أبناء أخته من مدرسة أخرى إلى مدرستهم، داخلتها فرحة خفية؛ لأن ثمة شيء ولو بعيد سيربطه بالمكان الذي تعمل به، قادته نحو مكتب المدير، قدمته له باعتباره أحد المعارف، ظلت معه حتى انتهى من عرض طلبه، ثم رافقته مودعة حتى نهاية الممر قائلة إنها ستتابع الأمر بنفسها، شكرها، ثم انصرف وهي تتابعه ببصرها حتى اختفى.

مضت نحو غرفة المدرسين وهي تطير فرحًا من داخلها، إذ منحها القدر تلك الصدفة الرائعة التي لم تكن "على البال أو الخاطر" كما حدثتها نفسها.

عادت إلى بيتها منتشية، لا تخطئ عين من رآها انشراح ملامحها وبريق عينيها، وما إن اختلت بنفسها في غرفتها ليلًا، وقد

انصرف كلٌ إلى مخدعه حتى أسرعت لأغراضها القديمة تبحث فيها عن شيء بعينه حتى وجدته. دقائق معدودة وكانت تدور حول نفسها، وتتمايل على كلمات (ماجدة الرومي) تنبعث من (كاسيت) صغير، حرصت ألا يجاوز صوته باب غرفتها، غابت مع النغمات في عالم من نسج أحلام يقظتها حيث "من أنت؟ من أنت؟ زرعت بنقر خطاك الدرب ورودًا جورية... فكأنك من قمرٍ تأتي... من نجمةِ صبحٍ ذهبية.. من أنت؟ من أنت؟ وسحرٌ في عينيك يشد العمر لأمنية... لوعودِ راحت ترسمها أحلام فتاةِ شرقية... من أنت؟"

قبيل ظهر اليوم التالي وهي تستعد للذهاب للمدرسة؛ إذ كانت تعمل بالفترة المسائية، رن هاتف منزلها الأرضي، أسرعت لتجيب، إذ لم يكن سواها بالمنزل في هذا التوقيت حيث الجميع إما في مدارسهم أوأعمالهم، وجدت رقمًا لا تعرفه على شاشة الإظهار، لم تصدق نفسها والهاتف يحمل لها صوته عبر أثيره، كانت المفاجأة أكبر من قدرتها على الاستيعاب، ورغم إحساسٍ خفي بعيد بخيبة الأمل راودها؛ لأنه حدثها بشأن اعتماده عليها في موضوع نقل أبناء أخته، وشكرها على موقفها معه أمس، وهي التي ظنت للحظة فور سماع صوته أنه سيحدثها في شأنٍ مختلف، إلا أن مجرد معرفته برقم هاتفها الأرضي، واختياره لهذا التوقيت الذي ربما يكون مقصودًا قد منياها

بأشياء وأشياء، أكدت له أنها ستتابع الأمر بنفسها، أنهت المكالمة وهي تشعر صدقًا بأنها تسير نحو حلم جميل.

في غرفة المدرسين بادرتها إحدى قدامى المُدَرِّسات بالسؤال عن طبيعة معرفتها به، صدمها السؤال، إذ لم تفكر وهي ترافقه إلى غرفة المدير بالأمس أن أحدًا سينتبه لها، أجابتها باقتباض: "إنه أحد معارفنا، قصدني فى خدمة لدى المدير من باب العشم" ثم انكفأت بكليتها على الكراريس التي أمامها، لتقطع باب الحديث على سائلتها، لكن السائلة وإن انصرفت عنها فقد دخلت في حديثٍ طويلٍ عنه مع مُدَرِّسةٍ أخرى تقاربها في السن، لم تستطع أن تمنع نفسها من التركيز معهما إذ ابتدأ الحديث صادمًا بكلمة "شاب تافه" ومضى ما بين هجومٍ ودفاع كالمطارق تضرب فوق رأسها، حتى كاد الصداع أن يفجر رأسها من هول ما سمعت، أكملت يومها في المدرسة بالكاد، عادت لمنزلها بوجه يناقض تمامًا وجهها بالأمس، إذ لا تخطئ عين من رآها ذاك الهم الذي كسى ملامحها، وتلك الكسرة في نظرة عينيها، دخلت غرفتها مبكرةً بحجة أنها مرهقة وبحاجة إلى النوم، أطفأت النور، واستلقت على سريرها تحملق في الظلام، وصدى حوار المُدَرِّسة يتردد في رأسها كطنين النحل:

ـ "شاب فاسد، ويخالط (شلة) تافهة"

ـ "أنت تتحاملين عليه"

ـ "أمه تشكوه إلى (طوب الأرض) بسبب فاتورة التليفون"
ـ "ومن أدراك؟ "
ـ "ابني زميل أخيه الأصغر، وكثير التردد على منزلهم"
ـ "أم أنك تأخذين منه موقفًا، لأنه تجاهل خطبة جارته الجميلة ابنة بنت خالتك؟"
ـ "تقصدين عبير بنت سهير؟ (العرسان) ببابها (طوابير)، أتنتظر مثله!؟"
ـ "يقولون أنها كانت (تضع عينها عليه)"
ـ "(فَشَرّ)! إن ظفرها برقبته"
و..... و.....، كلام كثير وحوار يطول، أيمكن حقًا أن يكون صدقًا ما قالت؟! أكل انطباعاتها عنه، وما وصلها عن حسن سيرته كان باطلًا؟ أي يدٍ قاسية أفلتتها من أعلى جبلٍ، وتركتها تهوي وتهوي، نحو بئر سحيقٍ من الشك والظنون؟!!
في اليوم التالي، وفي نفس التوقيت السابق تقريباً رن جرس الهاتف، عرفت رقمه هذه المرة، ترددت قبل أن ترفع السماعة، لتجد صوته يسألها رائقًا كما المرة الأولى عن "آخر التطورات؟" أجابته باختصار "لا جديد" وأنهت المكالمة في أقل من ثلاثين ثانية، والألم يعتصرها من داخلها، وصلت المدرسة وهي تكاد لا ترى أمامها، لفرط ما أنَّبَت نفسها طوال الطريق على إجابتها على هاتفه من الأساس، وكلمات الأمس تلاحقها بلا هوادة.

في الفصل لم تركز في شيء مما تشرحه، وبعد أقل من عشر دقائق من ابتداء الحصة شعرت بموجة برد تهاجمها رغم اعتدال الطقس، ورعشة تسري في أوصالها، وألم ينخر في كل عظامها فجأةً، ثم بدوار يزحف حثيثًا نحو رأسها، ولم تدرِ إلا وفتيات فصلها يلتففن حولها، وقد كادت تسقط لولا استنادها على المقعد أمامها، تبرعت إحداهن وأحضرت لها الزائرة الصحية بالمدرسة.

ارتفاع بالحرارة، التهاب شديد بالحلق والأذن، حقنة مسكنة، مضاد حيوي، خافض للحرارة، سوائل دافئة وراحة بالسرير لمدة ثلاثة أيام، نتيجة طبيعية لنومها الليلة قبل الماضية دون غطاء تاركة نافذة غرفتها مفتوحة، كانت فَرِحة منتشية لدرجة أنها لا تذكر متى غافل النوم عينيها.

في غرفتها بعد تناول الدواء والسوائل الدافئة، ولوم والدتها لها على إهمالها في حق نفسها حتى مرضت، طلبت منهم أن يتركوها تنام قليلًا. غادر الجميع مغلقين باب الغرفة لتقوم باحثة عن مذكراتها، كتبت جملة واحدة "من ذا يصدق أن مثلي كان يمرضه الهوى!؟" ثم أعادتها لمكانها السري، وحدها آمنت أن شيئًا أقوى من (دور البرد) أضعفها هكذا، عادت لفراشها، وتركت لدموعها العنان، فبكت حتى اكتفت، لأول مرة تمتن للمرض؛ إذ تستر فيه دموعها وهذالها، نامت بعد ذلك لتراه

في منامها؛ جالسًا وسط أصدقائه يتباهى بأنه ما من فتاة يمكن أن تستعصي عليه حتى "فلانة" وذكر اسمها، فلما أنكروا عليه ذلك راهنهم على أنه سيسمعهم صوتها يطير فرحًا لمجرد مكالمة عادية منه، وأدار قرص الهاتف برقمها، وهم حوله يترقبون، أحست بالاختناق، وبالعرق الغزير يخرج من كل جسدها وهي تحاول التنفس بصعوبة، وقلبها يكاد يقف من الصدمة حتى استيقظت على يد أمها تتحس جبينها فهدأت، قالت أمها بصوت حانٍ:

ـ "الحمد لله، لقد بدأت تعرقين، وانخفضت حرارتك"

ناولتها منشفة لتجفف عرقها، ثم ربتت على كتفها بحنان:

ـ "نامي يا حبيبتي، إن شاء الله خير"

أغمضت عينيها لتوهم أمها أنها ستنام، فلما غادرتها فتحتهما على سيل من الدموع الصامتة جرت حتى كلت، فنامت.

بعد ثلاثة أيام، وقد برأت من مرضها، واستعدت للذهاب إلى مدرستها، استوقفها رنين الهاتف في ذات الموعد، نظرت لرقمه على شاشة الإظهار، وتنهدت بمرارة، ثم قالت لنفسها بصوتٍ مسموع:

"لو كنت تريد الاطمئنان على أبناء أختك اذهب إلى المدرسة، وإذا كنت تريدني فاطرق الباب لا الهاتف"

وظلت واقفة حتى توقف الرنين، وما إن همت بالمغادرة حتى عاود الرنين، ترددت قليلًا ثم تقدمت نحو الهاتف، وبحركة واحدة جذبت (فيشة) الهاتف من مكبسها وهي تكمل حديثها لنفسها:

"من يدريني من يجلس إلى جوارك على الهاتف الآخر؟"

ثم انصرفت.

صيف ٢٠٠٥

(٥)

أبلة زينات

لم يكد يمضي شهر على بدء العام الدراسي حتى كانت (أبلة زينات)، مدرسة اللغة الإنجليزية النشيطة، قد اندمجت تمامًا مع فصلها الجديد، أحبت تلاميذه وأحبوها، وتحول الفصل إلى شعلة من النشاط.

تلميذٌ واحد فقط ظل منطويًا متكاسلًا لا يجيب، لا يشارك، لا يفعل أي شيء غير الجلوس منطويًا إلى جوار الحائط. حاولت (أبلة زينات) كثيراً أن تجعله يتفاعل مع الحصة، ولكن بلا جدوى. إلى أن جاء الموعد المحدد لامتحان الشهر الأول، حضر كل التلاميذ، وغاب تلميذها المعني، نجح كل التلاميذ، وبقي يحمل في شهادته العلامة (غِ).

لم يمض أسبوعان حتى قررت (أبلة زينات) إجراء امتحان آخر، وفي اليوم المحدد فوجئت بغياب تلميذها الكسول، فكرت للحظة، ثم أعلنت لتلاميذها تأجيل الامتحان لأجل غير مسمى بسبب الحصص المتأخرة، ألح عليها أحد التلاميذ في سؤاله عن الموعد القادم للامتحان فأجابته: "سنحدد فيما بعد" وشرحت الحصة.

في اليوم التالي حضر التلميذ الغائب، وأجرت الامتحان، نجح كل التلاميذ، ورسب ذاك التلميذ وحده.

استدعته (أبلة زينات)، وسألته عن السبب فلم يجب، تكرر الموقف في الامتحان التالي فعاقبته، لكن شيئًا لم يتغير.

احتارت (أبلة زينات) ماذا تفعل مع تلميذها، إنه يجلس ضائقًا صامتًا في حصتها على عكس كل التلاميذ، تسأله فلا يجيب، تحاول أن تساعده فلا يرضى، دائمًا تسأل نفسها: "لماذا أيها الولد؟! لماذا؟!"

لم تيأس المعلمة النشيطة، وبدأت تبحث حول تلميذها الراسب، سألت عنه باقي هيئة التدريس، فعلمت أنه متفوق في الرياضيات والعلوم مما زاد حيرتها وتعجبها، ثمة إحساس لديها بأن في العيون الصغيرة شيء يريد أن يخرج، لكن صاحبه يأبى عليه، الوجه الجامد الضائق خلفه شيء ما جميل ورائع لكن ما هو؟ ولماذا يقتله صاحبه بالتبالد والتكاسل؟ لابد أن تعرف.

علمت أيضًا أنه رسب العام الماضي في اللغة الإنجليزية، أصبح زملاؤه في المدرسة الثانوية، وبقي هو في المدرسة الإعدادية. حاولت أن تعرف سبب رسوبه، ضاق بها المدرس الزميل وقال لها في حدة:

"ما لكِ مهتمة هكذا؟"

أجابته:

"لو استمر ماهر على هذا الحال سيرسب هذا العام أيضًا"

قال زميلها ضجرًا:

"فليرسب هذا شأنه، لا دخل لنا، كلٌ أدرى بمصلحته"

لم يرقها أسلوبه، ولم يقنعها منطقه، ورأت أن من واجبها حماية تلميذها من تحطيم نفسه مادام قادرًا على تخطي الفشل. بدأت تسأل عنه زملاءه، أجمع معظمهم على أنه "(شاطر) في كل المواد ما عدا الإنجليزية" لكن أيًا منهم لم يفدها بتفسير سوى تلميذ واحد علمت من مراقبتها المستمرة ل(ماهر) أنه كثير الجلوس إليه، فقد أخبرها أنه هو أيضًا رسب في العام الماضي، أي أنه من زملاء (ماهر) القدامى.

حكى لها كيف أن مدرس اللغة الإنجليزية عاقب (ماهر) في بداية العام الماضي عقابًا شديدًا على خطأ تافه، وأهانه إهانة شديدة أمام زملائه، فأقسم الفتى الصغير الثائر ألا يذاكر الإنجليزية وأبر بقسمه، ففعل ورسب مما أثر في نفسه تأثيراً شديدًا، فتراجع مستواه ككل، وأصبح عصبيًا قليل الكلام، يميل إلى العزلة، بعد أن كان واحدًا ممن يتوقع لهم الحصول على مراكز متقدمة. أشفقت (أبلة زينات) على تلميذها، وأحست بالحزن الشديد لأنه يعاقب نفسه، وتمنت لو استطاعت أن تفعل شيئًا لأجله.

لم يتغيب ماهر عن الامتحان التالي؛ لأنه أدرك بالخبرة أن مدرسته لا تجري الامتحان إلا والفصل كامل العدد، أو بالأحرى إلا وهو حاضر. وقد أعلنت (أبلة زينات) أنها ستعطي جائزة لمن يحصل على الدرجة النهائية، وستقوم بوضع اسمه فى لوحة الشرف الخاصة بالمدرسة، فاشتعل حماس التلاميذ. في اليوم التالي قامت المدرسة النشيطة بتسليم التلاميذ أوراق إجاباتهم المصححة، ثم قالت:

"لقد وعدتكم بجائزة لمن يحصل على الدرجة النهائية، وقد حصل عليها زميلكم (ماهر عبد السلام محمد)"

ثم أردفت: "يبدو أنه كان يتماكر طوال الفترة السابقة ليصنع لنا مفاجأة، ويحصل على الجائزة"

وأمرت التلاميذ أن يصفقوا له، ففعلوا في شبه ذهولِ عام، ثم تقدمت نحو مقعد (ماهر)، وسلمته الجائزة وهو لا يزال ذاهلًا.

في الفسحة هرع إليها (ماهر) وبيده الجائزة وورقة امتحانه التي لا تحمل إلا أسئلة خالية من إجاباتها، كتب عليها بالخط الأحمر السميك ٥٠/٥٠، وبجوارها عبارة بخط معلمته الرشيق "حافظ على هذا المستوى" قال (ماهر) وهو يعطي مدرسته الجائزة:

- "أنا لا أستحقها"

أجابته بثقة:

ـ "ستستحقها فى الشهر القادم.... أنا متأكدة"

صمتت لبرهة وهي تنظر في عينيه، ثم قالت:

ـ "متأكدة أنك ستحافظ على هذه الدرجة، ولن تخذلني"

ثم أردفت:

ـ "يمكنك الاعتماد علي في تحصيل ما فاتك"

قال لها (ماهر) في تأثر شديد، وقد طفقت الدموع لعينيه:

" أعدكِ "

٢٠٠٠/٦/٣

(٦)

الوسيم

أثناء جلستهما المعتادة في ذلك النادي، والتي تباعدت بمرور السنوات من لقاء أسبوعي متفق عليه بين ستٍ من الرفيقات إلى صدفة بحتة بين أي منهن، تبادلتا أطراف الحديث مبتدئتين كالعادة بأخبار الغلاء، وتبدل الأحوال في الداخل والخارج من سيء إلى أسوأ، عروجًا على أخبارهما الشخصية، انتهاءً طبيعيًا بالغيبة والنميمة وأخبار الناس.

ليستا صديقتين بالمعنى الصحيح للصداقة، لكن ما بينهما بحكم طول الملازمة فوق زمالة الدراسة، ودون الصداقة الحقة التي تربط الأرواح، وتقرب العقول.

مر من أمامهما فانتبهتا إليه، ثم انحنت إحداهما تجاه الأخرى وقالت:

ـ "أليس هذا قريبك!؟"

ثم تابعت بإعجاب تداخله شبهة حسد:

ـ "لقد تطور كثيرًا"

أجابتها الأخرى بهدوء واثق، ثقة من يعرف أكثر، ومسحة شفقة، لجهل رفيقتها، شديدة الخفاء:

- "أجل"

ثم تنهدت بعمق:

- "قريبي!!"

- "نجاحه الساحق حديث الجميع"

فردت الأخرى في نفسها بأسف يأتي من بعيد:

- "مثلما كان فشله الساحق حديثهم جميعًا"

في حين تابعت رفيقتها بانبهار لا تُخطئه أذن:

- "نجاح مشروعه الأخير مع وزارة الإسكان والأرباح التي حققها جعلته أشهر مهندسي المدينة على حداثة افتتاح مكتبه"

ردت عليها بنفس الأسف ، ذلك البعيد:

- "لقد سبقَهُ زملاؤه بسنوات"

- "لكنه أشهرهم الآن على الإطلاق، لقد صدق فيه ظنك"

اضطربت الأخرى اضطرابًا لحظيًا، سرعان ما أخفته خلف لهجة استغراب واضحة:

- "ظني.... أنا!!؟"

- "كُنتِ الوحيدة في (شلتنا) التي توقعت نجاحه رغم اخفاقه المستمر في بداية حياته، هل نسيتِ؟"

- "ألا ترين أن مشاغل، وهموم الدنيا كفيلة بأن ينسى المرء اسمه، لا مجرد تكهنات عن أحد أقاربه منذ حوالي...... خمسة عشر عامًا؟!"

ثم تابعت دون مقاطعة:

ـ "صحيح.... ماذا فعلت ابنتك بشأن العريس الذي تقدم لها؟"

ـ "(الخائبة)! رفضته كعادتها"

ـ "ألعيبٍ محدد!؟"

ـ "أبدًا، الرجل لا يعيبه شيء، لكنها ابنتي (الخائبة) لا شيء على لسانها سوى "الدراسة يا ماما! الدراسة يا ماما!""

ـ "معها حق، ابنتك لا تزال في أولى سنواتها الجامعية"

ـ "وما المشكلة؟ لقد تزوجتُ بعد الثانوية العامة مباشرةً، وها أنا وهي نسير معًا فيظن من يرانا أننا أختان، لا أم وابنتها"

ابتسمت رفيقتها ابتسامة من اعتاد مثل هذا الكلام، ثم انحنت نحوها، وهمست بهزلٍ ماكر:

ـ "وتريدين لها أن تأخذ كل عام في عامين؟!"

ـ "حصلتُ على شهادة في النهاية مثلي مثلكم، وأعمل الآن مثلي مثلكم"

ـ "الزمن تغير!"

ـ "نعم... أصبحت فرص الزواج أصعب، قُلت لها يا ابنتي ستتأخرين في الزواج مثل طنط هي......"

وهنا أدركت ما انزلقت إليه فابتلعت ريقها، ثم وبمبدأ الهجوم خير وسيلة للدفاع تابعت:

- "أووم... أووم، أجل يا هيام كُنتِ ترددين مثل هذا الكلام حتى تزوجتِ آخرنا"
أجابتها هيام بهجوم وجرأةٍ موازيين:
- "تزوجتُ بعد الجامعة مباشرةً"
فقالت الأخرى بفرحةٍ من وجد البينة:
- "بعام كامل؟"
ابتسمت هيام ورددت بلا ضغينة:
- "بعام؟ هل عام تأخير يا ميرفت!؟"
استمرتا هكذا ما بين شدٍ وجذب في حوارٍ طويل، حتى أسلمت ميرفت رايتها، وخلعت قناعها، وقالت لهيام بقلق أم حقيقي:
- "أنا خائفة عليها"
فلما أحست هيام بصدقها بادلتها إياه بصدقٍ مثله، وسألتها:
- "لماذا؟ ابنتك (ما شاء الله) ذكية، قوية الشخصية، عقلها أكبر من سنها، وتعرف ماذا تريد بالضبط"
- "أريد أن أحميها من نفسها... ابنتي تحب!"
نظرت إليها هيام في تعجب، ثم قالت بعد برهة صمت:
- "لا أفهم!!"
- "أريد أن أشغلها برجل يحبها ليصرفها عن الرجل الذي تحبه"
نظرت إليها هيام ثانيةً نظرت استفهام، فأتبعت:

- "ابنتي تحب رجلًا ليس لها، رجل نهاية ازدهاره بداية ازدهارها، رجل أوانه غير أوانها، أخاف عليها قسوة التجربة"

قالتها وهي تنظر نحو ملعب التنس حيث اثنان من اللاعبين، تبعتها هيام حيث تنظر، ثم ردت إليها الطرف محملقة، فأجابتها ميرفت على سؤال عينيها:

- "نعم... هو... قريبك"

فزعت هيام، ومرت عليها لحظة دوار أحست فيها بمزيج من شفقةِ وألم، ثم قالت باستنكار:

- "لا..لا، قولي شيئًا آخر، مثل هذه الأحاسيس لا تعدو أن تكون مجرد إعجاب، مثل هذه الأحاسيس ليست حبًا حقيقيًا... إنها أحلام حب... أمنية حب.. مشروع حب... أوهام حب، لكنها أبدًا ليست حبا حقيقيًا"

- "لقد قالتها لي صراحةً "أحبهُ يا أمي، وأعرف أنه لا يحبني، أحبهُ، وأتعذب كيف أجعله يحبني""

أجابتها هيام بصوتِ مختنق، مرتعش ارتعاشة من ذاق هذا الألم، وجرب تلك الطعنة:

- "اعذريها يا ميرفت.... فهو شاب، ناجح، مشهور، جذاب، في سن هي قمة التألق بالنسبة لرجل، ربما يكون عمره ضعف عمر ابنتك تقريبًا، لكن لا يبدو هذا عليه كأن الخمسة عشر عامًا الماضية لم تمر عليه"

ثم أتبعت وابتسامة باهتة تتراقص على شفتيها:
- "وقبل ذلك كله فهو وسيم.. وسيم جدًا، لا تستهيني بهذه الأشياء بالنسبة لفتاة في السابعة عشرة مثل ابنتك"
- "المشكلة أنها سمعت أنه يحب وسيتزوج، من يومها وهي منهارة"
اكتسب صوت هيام قوة هذة المرة وهي تقول لميرفت:
- "قولي لها ألا تنهار، فهي أقوى من التجربة، وأصلب من الألم، ستمر من المضيق، وستبرأ من الوهم، وعندما يتوقف النزيف ويتوقف الألم، وتنقشع الغشاوة ستعرف الفرح، ستنظر نحو الماضى لتسخر من نفسها، قولي لها "يا ابنتى أنتِ ملكة حقيقية، وهو ليس قائد الفرسان، فاهتمي بنفسك" ولتدعهُ هو لقدره، ليحب، ليتزوج، ليضم لقائمة جواريه من شاء..... "
انتبهت من استرسالها على سؤال رفيقتها بفضولها المعتاد:
- "أهي (غادة)؟"
أجابتها بهدوئها الواثق تلك الثقة ، ثقة من يعرف أكثر:
- "لا أظن... مثلهُ لا يحب مثلها"
- "ومن أدراكِ؟"
- "ألستُ قريبته!!؟"
ثم أتبعت ناسيةً أنها تحدث رفيقتها:

ـ "مثله يحب فتاة فائقة الأنوثة، باهرة الحُسن، بالغة العذوبة، متقدة الذكاء، روحها صدىً لفتاةٍ أخرى عرفها في صباه الباكر، أوانها لم يوافق أوانه، بداية ازدهاره نهاية ازدهارها، أُعجب بها دائمًا لكنه أبدًا لم يحبها!!"

٢٠٠٤/١٠/٨

(٧)

إجهاض متكرر

" إجهاض متكرر "

هذا هو التشخيص الذي وصف به أخصائي أمراض النساء والتوليد حالتي، ظل يقول كلامًا كثيراً عن الأسباب، الأكثر احتمالًا أنها جينية، وأنني وزوجي بحاجة لفحوص متقدمة وتحاليل جديدة، وأن، وأن........

لم أعلق على شيء مما قاله، الذهول والألم تملكاني، بعد كل هذه الفحوص والمتابعات، بعد كل هذه المرات من الحمل والإجهاض!!؟... لم يصلوا لسببٍ بعد !!؟ بعد كل هذه المرات !!؟ شعرتُ بيدِ قاسية تُمسكُ بتلابيب قلبي وتعصره، وبأنفاسي تخرج سريعة عميقة موجعة، ومرارة الحصى في حلقي، لم أدرك أنني سرتُ المسافة كاملة من عيادة الطبيب حتى شقتي إلا بعدما أدرتُ المفتاح فى باب الشقة، دخلتُ فوجدته ينتظرني قَلقًا مُترقبًا، أخبرته والكلمات تختنق على شفتي بمختصر ما قاله الطبيب، وبأن كلينا بحاجة لتحليل جيني، وفحوص شاملة، واكتشفتُ أن تقريراً بحالتي، وتوصية إلى أستاذ كبير متخصص في هذه الحالات قد ظلا بيدي منذ تركت الطبيب، أعطيته

الورق وأنا أُردد دون وعي ما قاله لي بأن السبب قد يكون مشتركًا بيننا، أو لدى أحدنا فقط، وبأن أزواجًا قد انفصلوا وتزوج كلٌ منهما بآخر، فأنجب كل منهما من زواجه الجديد.

لم أنظر في عينيه منذ دخلت وواثقة أنه لم يفعل، وإن لم أرفع إليه طرفًا، فالصدع الذي حدث بيننا لم يعد يحتمل شقوقًا جديدة، منذ دخلنا في دائرة مغلقة من متابعة التبويض، فالحمل، فالإجهاض فالمتابعة من جديد، منذ فرحنا أول مرة ب "مبروك تحليل الحمل إيجابي" ثم انهيارنا أول مرة مع "للأسف إجهاض"، ثم... ثم... ثم... التكرار القاتل لتصبح إيجابية التحليل مدعاة لسؤال واحد "تُرى كم سيعمر هذا الحمل هذه المرة!؟" شهر؟ شهران؟ يوم؟ يومان؟ أكثر؟ أقل!!؟ منذ انكسرت الفرحة فنسينا طعمها، وأوجعنا تتابع ضياع الحلم فلم نعد نحلم، وأرهقنا التمسك بالأمل فلم يبقَ إلا اليأس.

أخبرتُه أنني مرهقة، وسأستريح في سريري، لم أذق لهذه الراحة طعمًا، ولم تفارقني الأعراض نفسها منذ خرجت من عيادة الطبيب. أسمع صوت خطواته يقطع الشقة جيئةً وذهابًا، لكن أحدنا لا يقوى على مواجهة الآخر بما يعلم يقينًا أنه يفكر فيه. بقايا حب؟ حياء؟ منع أحدنا من أن يجرح الآخر بسؤال على طرف لسانه:

- "هل هذه النهاية الكئيبة هي ختام حكايتنا؟ هل ستكمل مع غيري!؟"
في المساء اقترب مني، وقال محاولًا دون جدوى أن يبدو طبيعيًا:
- "لمَ لا نذهب للطبيب الكبير، ولدينا جنين نريد الحفاظ عليه؟"
- "لا أستطيع"
نطقتها كأمَرِّ ما يكون طعم الأحرف المختنقة فوق الشفاه، وكأعسر ما تكون المنطوقات على من طال بكمه، ثم خرجتُ من الغرفة مسرعةً وقد طفقت لعيني دموع طالما أرهقني طول استجداؤها، فلم يتبعني، وخيراً فعل.
توضأت ووقفت أحاول الصلاة والدعاء، لم أجد شيئًا أقوله، حتى الدعاء مجهض على لساني!! هممتُ بترك الصلاة لولا دبيب قدميه، أدركته خلفي ففجر الوجع دمعًا طالما استعصى علي فهطل غزيراً صامتًا متواصلًا، لم أقل شيئًا طوال دعائي سوى كلمة " يارب! " تقطع تتابع أنفاسي العميقة المجهدة من حينٍ لآخر، فهو وحده يملك أن يعطيني ما أريد بغير حساب، وهو وحده يعلم ما أريد أن أقول، وما لا أستطيع أن أقول.
لم أستطع الذهاب للعمل في الصباح، ظللت أسير في الطرقات دون هدف حتى قارب موعد عودتي، فكرت في الذهاب

للجميع، أمي، إخوتي، أهلي، أهله، كل الذين أعانني دفء كلامهم الطيب على استعادة الرجاء بعد كل مرة إجهاض سابقة لأقوى على التجربة من جديد، البلاء... الصبر... محنة أيوب... صبر يعقوب... بشرى إبراهيم... معجزة زكريا... روح الله التي لا ييأس منها إلا القوم الكافرون... أستغفر الله!

ثم قادتني قدماي إليها، إذا لم تنفعني الصداقة الآن، فلأي احتياج أشد مما أنا فيه أدخرها!؟ عندما فتحت الباب، ونظرت لوجهي أدركتْ دون كلمة أنني أجهضت للمرة.... التي لم أعد أحصيها، ارتميت في صدرها، وبكيت كالأطفال بأعلى صوتي، وهي تربت على كتفي، وتقبل يديّ ورأسي، ولا أزداد إلا نحيباً وبكاءَ.

أخبرتها وسط شهقاتي بما قاله الطبيب، ظلت تحتضنني حتى هدأت، همت بالكلام فقلتُ لها بكل مرارتي:

ـ "لا تقولي شيئًا!"

فإذا بها تثور على فجأة، وتهزني بعنف، وتنهرني قائلة:

ـ "بل سأقول، ولابد أن تسمعي، وأن تفيقي من هذا الضياع الذي تذوبين فيه، حتى لو ذهبتِ للطبيب الكبير فلن يجدي معكِ علاجه وأنتِ بهذا اليأس... الأدوية لا تخترع الأمل، الطب وحده لا يكفي! لا يكفي!"

واصلت كلامًا كثيراَ موجعًا، ذكرتني بسخريتي اللاذعة من نفسي ومنهن في سنوات دراستنا عندما كنا نتكاسل عن المذاكرة حتى آخر الليل فنبدؤها بين النوم واليقظة، وكيف كنتُ أتمثل حالنا نحن المستحقين للتفوق، المتكاسلين عن المذاكرة، وحال أولئك الغير مستحقين له -من وجهة نظري- لكنهم يذاكرون بجد ونشاط بكلمات (شكسبير) على لسان (إدموند) الابن غير الشرعي للورد (جلوستر) في مسرحية (الملك لير) وهو يتمايز على أخيه الشرعي (إدجار) بأنه يملك فتوة وعنفوانًا يكفيان رهطًا من الحمقى الذين أنجبتهم أمهاتهم شرعًا في فراشٍ بارد مرهق لا طعم له في لحظة بين الصحو والسبات. قالت أن حياتي كلها باتت مرهقة باردة، وأحداثها جميعًا بين الصحو والسبات، وبأن الإجهاض ومنذ وقتٍ بعيد أصبح هو السمة المميزة لكل مشاعري، وليس لأطفالي فقط.

شعرتُ أنها فكت العقدة التي تربط عقلي عن التفكير منذ خرجت من العيادة أمس، وأنها قالت الكلمة المعقودة على لساني، والتي رددتها في نفسي آلاف المرات، ولم أقوَ على نطقها:

- "إجهاض متكرر... إجهاض متكرر يساوي أنا... أنا كلي حالة مزمنة من الإجهاض المتكرر"

تركتها دون كلمة وجريت، عدت إلى شقتي لأجده ينتظرني قلقًا، كانت هيئتي غنيةً عن أي كلام أو مبررات يمكن أن تقال،

طلبتُ منه أن يأخذ لي إجازة اعتيادية من العمل، أخبرته أنني سأقيم في شقة أختي المسافرة، فلا أريد أن أرى أحدًا حتى أهدأ. حاول معارضتي في البداية لكنه تراجع أمام انهياري... وإرهاقه! اتفقنا على رنة من هاتفي الجوال عند الفجر ليطمئن أنني لا أزال على قيد الحياة، وما عدا ذلك فسأغلق هاتفي، رجوته ألا يحاول الاتصال أو المجيء إلا إذا انقطعت الرنات.

جمعت أشيائي، وأخذتُ ما يكفيني للعيش وذهبت، ناسبت كآبة المكان المغلق منذ زمن كآبة نفسي، وقررت من البداية أن أكون صريحة معي!! أنا هنا لا لأفكر وإنما لأشعر، لأبدأ شريط الذكريات من البداية لا بعقلي الذي لم يُسقطها قط، وإنما بمشاعري، وما أصعب استعادة المشاعر في غير وقتها!

الطفولة... المراهقة... الصبا... الشباب... الحب الأول... الألم... النسيان... الدراسة... العمل... النجاح... الفشل... كل ميتٍ مات ولم أحتد عليه كما ينبغي، كل مولودِ قدم ولم أفرح به كما ينبغي، كل حزنٍ أسقطته في الطريق، كل فرحٍ انسلخت منه. كل حلمٍ أجهضته عمدًا، كل ألمٍ تجرعته صمتًا، كل إهانةٍ ابتلعتها راغمة، كل غيظٍ كظمته مضطرة، كل غضبٍ كتمته حتى انفجر فيّ، كل قسوةٍ لم أقسها للنهاية، كل رحمةٍ لم أذب فيها كفاية، كل ذنبٍ أذنبته وسَوّفْتُ التوبة عنه، كل حسنةٍ

هممت بها ولم أفعلها، كل خطأ لم أحتج عليه، كل صوابٍ لم أدع إليه...... سأعطي كل ذكرى حقها.....

فشلتُ في البداية، وفكرتُ في الرجوع، لكن صدى الكلمة في أذني ونفسي ألزمني بالبقاء.... إجهاض متكرر، كل شيء في حياتي مجهض من البداية... أحلامي... طموحي... نجاحي... شعوري... كل شيء مجهض حتى طال السقط أطفالي!!!

هل ستحتمل أعصابي كل هذا الانفعال؟! أنام وأصحو، أبكي حتى يقتلني البكاء، وأضحك حتى يصرعني الضحك، أصرخ حتى أخشى أن يسمعني الجيران، وأرقص حتى حافة الجنون.

كل مجهضاتي تتتابع أمامي، أستعيدها بكل ما أملك من دموعٍ وأعصابٍ وشعور حتى وصلتُ لعلاقتي بـ(محمود)... زوجي، فخارت قواي، سقطتُ وسط أكواب المنبهات التي تحوطني من كل جانب، وغبتُ في نومٍ عميق، استيقظت بعد أربع وعشرين؟ ست وثلاثين؟ لا أدري كم ساعة نمت!!

استيقظتُ لأتنفس ملأ رئتي، وأحس يقينًا أن الهواء أنقى، وقدرتي على التنفس أقوى، نظرتُ في المرآة فهالني ما رأيت، أهذه أنا؟! أم فارة من مقبرة؟!... وقررتُ الرجوع.

اغتسلتُ وارتديتُ أفضل ثيابي، لملمتُ أشيائي وخرجت، كم يومًا مر عليّ هنا؟ لا يهم، عرجتُ على أول (كوافير) للمحجبات صادفني، ثم اتصلتُ به.

لم يُصدق أنه صوتي في البداية، طلبتُ منه أن يأخذ إجازة لأنني حجزتُ لنا أسبوعين في نفس الفندق الذي أمضينا به (شهر العسل) فقال لي:

- "إذن وافقتي أن نذهب للطبيب، ولدينا جنين نريد الحفاظ عليه!؟"

- "ولم لا تقول أنني أريد أن أتزوجك من جديد، فقد أحمل بطفلِ فتي لا يحتاج لطبيب يحميه من الإجهاض!؟"

٢٠٠٧/١/٢٤

(٨)

لحظة

ذُهلَ عندما وجدني أقفُ أمامه تمامًا، مثلما ذُهلتُ عندما رأيتُهُ حين دخلت، من منا كان يتوقع أن يرى الآخر!!؟

قال ولا يزالُ محملقًا:

- "أنت!؟"

- "أجلَ أنا!"

خرجت في نبرةِ من الأعماق لتجسد الماضي بكل أحداثه ومفارقاته، عادت بي الذاكرةُ للحظة مماثلة حين وقفت للمرة الأولى أمام نفس الوجه وذات الملامح، مرتعشةً مضطربة، ودقاتُ قلبي تعلو وتهبطُ بلا ثبات، يومها انتابتني نشوةٌ سرت من عيني المشبتتينِ في عينيه إلى كل أوصالي. تحدث حينها وانصرف ولا أزال غافلةً عن كلِ ما حولي سوى تجليات تلك اللحظة السحرية حين التقت أعيننا.

واليوم، بعد عشرين عامًا رأيتُهُ بذات ملامحه، ونظرتُ في ذات عينيه دون أن يحرك ذلك ساكنًا فيّ، عندها قلتُ لنفسي:

- "الآن أجزمُ أنه ما عاد شيء بيننا"

وفارقتني بلا عودة تلك الومضاتُ البعيدة التي كانت تأتيني من حينٍ إلى آخر، تُذّكرني به رغم الفراق.

٢٠٠٠/٦/١٧

(٩)

المنقذة

قادتهُ قدماهُ إلى ذلك المقهى القديم حيث كان يجلس وأصدقاؤه أيام الدراسة والسنوات التي تلتها، (مقهى العاطلين) كما كان يسميه، لم يطأ هذا المكان منذ وُفِّقَ إلى عمله واستقر به. ظل يتصفح الوجوه عله يجد أحدًا يعرفه، لم يجد... حتى عامل المقهى تغير... كل شيء تغير. جلس شاردًا يحاول أن يشغل نفسه بالتطلع إلى المارة ليطرد التفكير عن رأسه المثقل بما فيه، حتى لمح قادمًا ظن أنه يعرفه فما إن جلس على مقربة منه حتى هتف به تلقائيًا:

ـ "(فؤاد)!"

التفت إليه، وحملق قليلًا فيه، ثم بادله هتافه، وقد قام إليه يصافحه ويعانقه:

ـ "(جمال)!"

وما إن استقرا جالسين حتى ابتدره (جمال) قائلًا بحماس:

ـ "ما الذي قادك إلى (مقهى العاطلين)!؟ ظننتُ مثلك يتبرأ منه وقد صرت موظفًا مرموقًا يتقاضى أجرهُ بالدولار!! "

ـ "وما الذي قادك أنت؟ ألست موظفًا حكوميًا، ومفترض بك أن تكون في عملك في مثل هذه الساعة من الصباح!؟"

ـ "قادني الهم يا صديقي"

بدا التأثر على وجه (فؤاد) الحزين الملامح، وأجابه وابتسامة ساخرة مريرة تعلو شفتيه ورنة حزن لا تخطأها أذن مدقق تغلف صوته:

ـ "قادني ما قادك يا حبيبي!"

رنت ضحكة عالية من (جمال) لفتت إليهما أنظار المحيطين في المقهى قبل أن يقول:

ـ "كُنت أظن الدولارات تمحو الهموم جميعًا!"

ـ "مخطئٌ من ظن السعادة في المال وحده، المال بعض الرزق وحسب"

ـ "الله! الله! ياعم (فؤاد)! عهدتك متفلسفًا متحذلقًا، ولم أعهدك واعظًا"

ـ "ومتى تركت الأيام أحدًا على حاله؟"

ـ "أتعرف؟ لقد ساقكَ الله لي، لدي مشكلة تؤرقني، وأنت خير من يمكنه مساعدتي"

ـ "أنا!؟"

ـ "أجل، أليس لك أخ طبيب نفسي!؟ دلني على عيادته"

همهم (فؤاد) بصوتٍ خفيض:

ـ "يبدو أنها أيام الطب النفسي"
ـ "ماذا تقول!؟"
ـ "لا شيء، أخي يا سيدي هاجر إلى كندا، ولا يمارس الطب النفسي، إنه يعمل في مجال التنمية البشرية، لكن بإمكاني أن أدلك على طبيب نفسي معرفة، هل تريده لأحد معارفك؟"
ـ "بل لي أنا؟"
ـ "أنت!؟ أنت (زي الفل)، ضاحكًا ساخرًا كما عهدتك"
ـ "ذلك لأن مشكلتي غريبة بعض الشيء، يعني... على طريقة هم يبكي وهم يضحك"
ـ "للحد الذي تحتاج فيه لطبيب نفسي!؟"
ـ "إنه مجرد سعي هداني تفكيري إليه بعد أن زادت الأعراض في الفترة الأخيرة!؟"
ـ "أية أعراض؟؟"
قالها بفضول تلقائي، ثم استدرك سريعًا:
ـ "آسف! لا أقصد التدخل في أسرارك"
ثم أخرج هاتفه مسرعًا، وقال وهو يبحث فيه:
ـ "ها هو رقم الطبيب"
قاطعه جمال محاولًا إخراجه من الإحراج البادي عليه:
ـ "لا عليك، ليست أسرارًا، فقط أنا أخشى إن ذكرت مشكلتي أمام من لا يقدرها أن يستخف بي"

ثم تابع ضاحكًا:

ـ "أما مثقف متحذلق مثلك فقد يفيدني... ببساطة يا سيدي، أحلام شبابي تطاردني"

ـ "لا أفهم!؟"

ـ "كنتُ متعلقًا بفتاة في بداية شبابي، طيفها يطاردني في أحلامي باستمرار"

ـ "ألستَ متزوجًا!؟"

ـ "بلى"

ـ "بسواها!؟"

ـ "نعم"

ـ "هي التي تركتك؟"

ـ "بل لم تكن تعلم بحبي لها على الإطلاق!"

ـ "أثرت فضولي!!"

ـ "اصبر علي قليلًا، وسأحكي لك من البداية"

ـ "معك"

ـ "كانت جميلة جدًا، وبعيدة جدًا، تسكن في نفس منطقتي وإن كانت الجيرة بعيدة، بهرني جمالها، لكن سني وظروفي وإمكاناتي وقتها لم تكن تسمح لي حتى بمجرد التفكير في الارتباط لا منها ولا من غيرها، لم يمنعني ذلك من متابعتها، انتشيتُ فرحًا عندما وجدتها تدرس معنا في نفس الجامعة،

ظللت أطاردها من بعيد حتى تعلقتُ بها، لكني لم أجرؤ على مخاطبتها ولا مرة واحدة. الشيء الوحيد الإيجابي الذي فعلته أنني استقللت معاها نفس (الميكروباص) الذي تستقله ذهابًا وإيابًا إلى الجامعة، تجرأت مرتين أوثلاثة ودفعتُ لها الأجرة، فلما اعترضت في أدب قلتُ لها "الجيران لبعضها" علها تدرك من أنا، أصبتُ بخيبة الأمل لأن نظرتها غير المكترثة لم تتعرفني على الإطلاق، كررتُ المحاولة فلم تعرني أدنى اهتمام، لم يمنعني ذلك أن أعيش معها بخيالي أجمل قصة حب، حتى كدتُ أصدق أنها حقيقة واقعة، بل وانتظر منها أن تكون على نفس الدرجة من الوله بي. انتهت دراستنا الجامعية فصدمتُ بخبر خطبتها وظللتُ لفترة طويلة في حالة اكتئاب شديد خاصة أن كل محاولاتي للبحث عن عمل في هذه الفترة باءت بالفشل، كان طيفها يطاردني في أحلامي، وعلى اختلاف التفاصيل كان مضمون الحُلم واحدًا... أنها هي التي تسعى إلي لتخبرني أنها تحبني بنفس الدرجة وأكثر، وأنها أجبرت على الخطبة لسواي ليأسها من تقدمي لها، وقد انتظرتني طويلًا، لكن حتمًا سيجعل الله لنا مخرجًا ويجمعنا معًا. وظللتُ هكذا لشهور حتى علمتُ بميعاد زفافها، عندها قررتُ أن أفيق وأن أواجه نفسي، واتخذت خطوة شجاعة، وهي حضور حفل زفافها رغم أن أحدًا لم يدعني؛ لأثبت لنفسي أنها ليست لي، وأنني أملك الشجاعة الكافية

للتخلص من هذا الوهم الكبير الذي أسميه حبًا وأعيش فيه. وليتني ما فعلت، إذ تعرضتُ لأسوأ موقف في حياتي فقد ظنني أهل العريس من أقارب العروس، وظنني أهل العروس من أقارب العريس، فلما لاحظت أن الهمس والتساؤل بدأ يدور حول هويتي خرجت مسرعًا، والأسوأ من ذلك أن صورتها بطرحة الزفاف البيضاء وهي في أبهى زينتها انطبعت في ذاكرتي وراودتني بعدها مراتٍ في منامي. لم ينقذني من ذلك إلا العمل، ومع استقراري وانشغالي به فارقتني الأحلام أخيرًا، وبعد تحسن أحوالي المادية تعرفتُ على زوجتي الحالية، خطبتها وتزوجتها بأسرع مما كُنت أتوقع، لكن في الفترة الأخيرة بدأت فتاتي القديمة تطارني ثانيةً في منامي وبكثافة، تعاتبني لأنني تخليتُ عنها وتزوجتُ غيرها، والجديد في الأمر أنني أناديها باسم محدد في الحلم، اسم غير اسمها وأستيقظ من نومي وأنا أهتفُ به... أناديها بـ...."

تردد طويلا قبل أن يُخبر صديقه، ثم تابع قائلًا:

"أناديها بـ(سبرينا)، وأنا لا أذكر إطلاقًا أنني تعرفتُ على أية فتاة اسمها (سبرينا)، لذلك فكرتُ أن ألجأ إلى طبيب نفسي يساعدني في التخلص من تلك الـ(سبرينا) قبل أن تستيقظ زوجتي على هتافي باسمها، وتظن بي إحدى السوءتين، الخيانة أو الجنون، والحال لا يحتمل"

قال (فؤاد) وقد استغرقته حكاية صديقه تمامًا:

- "(سبرينا)! كيف لا تعرف (سبرينا)!؟ (جوليا أرموند)، (هاريسون فورد)، (جريج كينر)، إنه واحد من أشهر أفلام منتصف التسعينات"

وهنا قفز (جمال) من مكانه في حركة تمثيلية، صافح وعانق (فؤاد) بحرارة وهو يهتف بصدقٍ وحماس:

- "أنت عبقري! عبقري! كيف نسيت هذا الفيلم!؟ وكأنه مُحي من ذاكرتي، كُنت أدمن هذا الفيلم في مراهقتي، نعم (سبرينا)... (سبرينا) ابنة السائق"

- "(سبرينا) هي المنقذة"

قال (جمال) بنفس الحماس:

- "نعم، (سبرينا) هي المنقذة، عندما شاهدتُ هذا الفيلم لأول مرة كُنت صغيراَ جدًا، ولكنني تمنيتُ حينها أن تظهر في حياتي (سيرينا) تغير مجراها... لقد نسيت ذلك تمامًا... لولاك ما تذكرتُهُ أبدًا"

- "هل كانت فتاتك تشبه (جوليا أرموند)؟"

- "إطلاقًا! لم يكن هناك أي شيء يربط بينهما، حتى عندما تعلقت بها كُنت قد نسيتُ أمر الفيلم تمامًا"

- "لكنك ربط بينهما في أحلامك! هل تسمح لي بسؤال شخصي؟"

- "تفضل!"

- "هل أنت سعيد مع زوجتك؟ هل أنتما على وفاق؟"
صمت (جمال) قليلًا، فظنه فؤاد لا يريد الإجابة، وبادره معتذرًا:
- "أنا آسف! لم أقصد التدخل في حياتك، أنا..."
وهنا قاطعهُ جمال:
- "لا تعتذر أنت فقط لمست الجرح، القاصي والداني يعلم بخلافاتي التي لا تنتهي أنا وزوجتي"
- "أسمح لي، كيف تسمح بتفاقم الأمر بينكما حتى تصبح حياتك مشاعًا للجميع؟"
- "أنا وهى لا نتفق على الإطلاق، وتصل بيننا الأمور دائمًا إلى طريقٍ مسدود يتطلب تدخل الأهل والمعارف، لأنني مهما حاولت معها غبية لا تفهم"
- "أنا آسف فعلًا، لكن كيف تسب زوجتك أمامي، فمهما كان ما يربطنا أظل غريبًا!؟"
- "يا حبيبي! هذا ليس سبًّا، هذا وصف"
- "وإن كان، ألا تتستر على عيوبها من باب المروءة!؟"
أشاح (جمال) بوجهه عنه في امتعاض، واضعًا إحدى ساقيه فوق الأخرى، ضاربًا الهواء بظاهر كفه، رافعًا طرف شفته العليا وحاجبه الأيسر في تعبير جسدي اصطلح عرفًا أنه يعني "لا فائدة" فحاول (فؤاد) إعادته لمجرى الحديث ثانيةً بقوله:

ـ "أنا لا أريد أن أعرف ما هي خلافاتكما، لكن اسمح لي أن أسألك، كيف تنهيانها؟"

ـ "ماذا تعني؟"

ـ "ما سمعته، كيف تنهيان خلافاتكما؟ كيف تتصالحان؟"

ـ "إما أن يتدخل الأهل والمعارف، أويستسلم أحدنا لرأي الآخر في صمت، فيبادر بالأحاديث الروتينية، ويلين في كلامه، حتى نعود تدريجياً لحياتنا اليومية التقليدية"

ـ "وبعد ذلك؟ ألا تتعاتبان؟"

ـ "أقول لك بالكاد نعود لحياتنا العادية، أنتعاتب لننبش الخلاف من جديد؟"

ـ "لتجدا حلًا له"

ـ "مشاكلنا من النوع الذي لا حل له"

ـ "وهل توجد مشاكل بلا حل"

ـ "(فؤاد) أرجوك لا أريد فلسفةً، ولا خطباً جوفاء"

قال (فؤاد) في أسف حقيقي:

ـ "أنا آخر شخصٍ في العالم يحق له أن يخطب أويتفلسف"

ولما لم ينتبه (جمال) لمغزى رده تابعه قائلًا:

ـ "هل هناك امرأةٌ أخرى في حياتك؟"

ـ "يا ليت! إنني أتمنى من كل قلبي أن أجد امرأةً أخرى تنقذني من النكد الدائم الذي أحياه مع زوجتي "

ـ "ها أنت قد وصفت حالتك دون الحاجة لطبيب نفسي"
ـ "ماذا تعني؟"
ـ "أنت تهرب يا حبيبي من مشاكلك، (سبرينا) المنقذة أو فتاة أحلامك التي تطاردك في منامك ما هي إلا منفذ لأمنياتك التي لا تستطيع أن تحقيقها في الواقع، أنت تهرب إليها في الحُلم؛ لعجزك عن مواجهة مشاكلك في اليقظة، أتسمع نصيحتي!؟"
استطرد (فؤاد) في حماس وانفعال بديا ظاهريين بوضوحٍ شديد على وجهه المتحقن، وصوته الذي يعلو ويهبط في انفعال:
ـ "واجه مشاكلك، اكسر حاجز الصمت بينك وبين زوجتك، أشعرها برغبتك الصادقة في استقرار حياتكما، اجعلها تفكر معك، لا تدفن رأسك في الرمل مثل النعام ثم تنتظر (سبرينا) المنقذة، لن يعينكَ سواك هذا ليس زمان (السبرينات). لا تترك مشاكلك الصغيرة تتفاقم كجبل الثلج تحت المياه، ثم تتفاجأ بسفينة الحياة تغرق، وأنت عاجز عن انقاذها، خذها مني نصيحة مجرب"
وعندما وصل (فؤاد) لهذه الكلمة فرت دمعة من عينه رغما عنه، مما دفع (جمال) للتوجه كليةً نحوه، والتساؤل بقلق حقيقي:

ـ "فؤاد! ماذا بك؟ أنا آسف إن كان حديثي أزعجك هكذا، أرجوك، أخبرني لمَ أنت منفعل لهذه الدرجة؟ هل قُلتُ شيئًا أغضبك؟"

ـ "لقد طلقتُ زوجتي الأسبوع الماضي"

قالها بحزنٍ شديد ناظرًا لأسفل واضعًا رأسهُ بين كفيه، وهنا هبّ (جمال) واقفًا، لم يكن يدري ماذا يفعل، قلب كفًا على كف، وقف إلى جوار (فؤاد)، همهم وغمغم محرجًا، وقد بدأ العرق ينضح على جبهته، ثم عاد ليجلس مكانه بعد أن أثار انتباه رواد المقهى، وقال:

ـ "أنا آسف يا فؤاد، أثقلتُ عليك بمشكلتي، وأنت تعاني وتتألم، أنا فعلًا آسف أنت آخر شخص يمكن أن يجول بخاطري أن لديه مشاكل زوجية، كانت قصة حبكَ أنت وزوجتك مثار إعجابنا جميعًا، آخر مرة قابلتك فيها كانت يوم المقابلة الشخصية في الشركة الأجنبية التي تعمل بها كُنت الوحيد بيننا الذي وُفق للعمل بها، مع كل هذه المعطيات مستحيل أن أتوقع أنك تعاني مجرد معاناة في حياتك الشخصية، فما بالك بالطلاق!؟"

رفع (فؤاد) رأسهُ إليه، وقال:

ـ "بل أنا من يجب أن يعتذر لك، فقد انفعلتُ دون قصدٍ مني، أنا آتي إلى هنا منذ أسبوع، أفكر ماذا يجب على أن أفعل ولا أعرف"

- "من منكما السبب في الطلاق!؟"

- "كلانا، لا تصدق أحدًا يقول لك أن طرفًا واحدًا مسئول عن هدم البيت، الحياة ليست فعلًا فقط، الحياة فعل ورد فعل، لكنني أعترف أن مسئوليتي كانت أكبر، كنتُ أعرف أن زوجتي هشة رقيقة، ورغم ذلك تركتها وحدها تحترق بنيران مشاكلنا الصغيرة، اقتناعًا مني أنها أتفه من أن نضيع وقتنا في مناقشتها، لم أهتم بكل التغيرات التي ظهرت على زوجتي، ظننتُ أن الحب الذى بيننا كفيل بأن يعطي حياتنا مناعةً أبدية ضد الشقاء والفراق، لم أصدق أن الحب كائن حي يحتاج لرعاية واهتمام، ليظل مزدهرًا قويًا حتى فوجئتُ بها تطلب الطلاق، لسبب أتفه بكثير من كل المشاكل التي واجهتنا طوال عشرتنا معًا، كالقشة التي قصمت ظهر البعير، وقطرة الماء التي فاضت عن الكوب، أصرت على الطلاق غير عابئة بأي خسارة ستلحق بها. كانت قد يئست مني تمامًا، فلم تفلح أي محاولة لاثنائها عما أرادت. رفضتُ... انهارتْ وانتهى بها الحال إلى مصحة نفسية، اعتذرتُ لها ووعدتها أن أفعل كل ما تريد لم تستجب وأصرت على الطلاق، راجعتُ طبيبها المعالج، فقال لي أن النفس البشرية كالجسد لها جهاز مناعي يتكون مع الأيام، وأن مناعة زوجتي النفسية ضعيفة جدًا، لم تحتمل ما ظننته، وربما لا أزال أظنه تافهًا لا يستوجب الشقاء، وأن هذا النوع الهش من البشر

يعاقب نفسه عندما يعجز عن معاقبة من أساء إليه. في كل مرة كُنت أذهب لأحدثها كانت تجيبني بدموعها الساخنة التي لا تتوقف وكلمة واحدة "طلقني" في آخر مرة اعتذرت لها مجددًا، اعترفت لها بأنني كُنت غبيًا حين أهملت متتطلباتها الصغيرة، وتفاصيلها الدقيقة، كُنت غبيًا حين تركتها تذبل في حزنها لمجرد أنني غير مقتنع بأسبابه، لم تبكِ هذه المرة، صرخت في وجهي على غير عادتها وقالت لي "الأغبياء لا يستحقون الحب"، لم أتمالك نفسي، طلقتها، خسرت بيتي وطفلتي والمرأة الوحيدة التي أحببتها، ولا أدري ماذا يجب أن أفعل"

كان (فؤاد) يبكي رغمًا عنه، وهو يسرد حكايته. فلما انتهى، بادره (جمال) وقد بدا متأثرًا بشدة مما رواه صديقه:

ـ "لقد عاقبتكَ"

ـ "ماذا تعني؟"

ـ "لقد عاقبتكَ كما تمنت، وأظنها الآن تنتظر عودتك معترفًا بألمك بأكثر مما انتظرت اعتذارك، تمامًا كما كنتُ أنتظر عودة (سبرينا) كل ليلة تعتذرُ عن تجاهلها لي"

صيف ٢٠١٠

(١٠)

عينـاها

ـ "عيناكِ كبحيرتي صدق"

ـ "ما أجمل هذا التعبير! لم أكن أعرف أنك شاعر!"

ـ "تعلمت الشعر منذ رأيتك فقط"

ـ "أنت تكذب لا محالة"

ـ "كيف أكذب وأنا في محراب صدقكِ يا سيدتي!؟"

ـ "كفى! لا أحتمل، المبالغة تشعرني بالتشبع"

ـ "إذا كنت لا تحتملين قطرة من فيض مشاعري فكيف أحتمل أنا كل ما بداخلي!؟"

سرحت بعيدًا متأملة صفحة النيل الفضية أمامها، كيف تتراقص أمواجه محركة القوارب الصغيرة فوقها في حركات إيقاعية منمقة، تتناغم وتتآلف في صعود وهبوط، وتصورت لها النخلات على ضفتي المجرى كأنما وجدت خصيصًا لتسقط ظلها على القوارب الراقصة، فأجلت في أعماقها ذوق فتاها الذي انتقى المكان، نظرت نحوه قائلة:

ـ "أتدري بمَ أشعر الآن؟"

ـ "بمَ؟"

ـ "بأنني في قصر مسحور من زمن البراءة البعيد"

ـ "وأنت تجلسين على ضفاف بحيرة القصر تنظرين إلى مياهها الصافية لتنعكس فيها صورتك الرائعة فأراها، وأتمنى لو أبحرت في عينيكِ إلى الأبد"

ـ "خسرك معهد التمثيل"

"وأعرف أني أسافر في بحر عينيكِ دون يقين، وأترك عقلي ورائي وأركض... أركض... أركض... خلف جنوني"

التقطت أذناهما الكلمات يبثها مذياع في أحد القوارب المارة إلى جوارهما فقال:

ـ "أسمعتِ!؟ حتى (كاظم) يتفق معي في الرأي"

أجابته وقد تهلل وجهها، إذ علمت من أين يسرق تعبيراته:

ـ "كنت تردد أغنيته طوال الوقت إذن؟"

ـ "أقسم لك لم أسمعها إلا الآن"

ـ "أتكذب ثانية!؟"

ـ "مولاتي لا يمكن الكذب في حضرة الملائكة، فنظرة واحدة من عينيكِ الساحرتين يمكنها كشف أمري بمنتهى البساطة"

لم تستطع أن تداري خيبة الأمل التي كست ملامحها بعد قسمه، فقد ارتاحت صادقة لتصور أنه خاطب يغازل خطيبته بكلمات مغنٍ مشهور ليسعدها، أم أن يكون حقًا مهوسًا بجمال عينيها، فهذا هو الهاجس الذي يؤرقها.

ـ "أتعرف أنك منذ جئنا لم تتحدث إلا عن عيني!؟ ألا يعجبك بي سواهما!؟"

ـ "العيون مرآة الإنسان للعالم الخارجي، فيهما تتجسم نفسه وانفعالاته وطبيعته، وتترآى خلالهما روحه، وبراءتكِ أقوى من أن تحجب، وعيناكِ أكثر شفافية من أن يمنعا عني هذا العالم المسحور الذي يبدو خلالهما"

ـ "لقد بدأت أغار من عيني"

ـ "عيناكِ منكِ، وأنتِ فيهما، فكيف تغارين!؟"

ـ "ماذا لو أن عيني ليستا لي، أكنت ستحبني؟ أكنت تجن مثلما أنت الآن؟"

ـ "لماذا تفكرين في هذه الافتراضات الخيالية؟ الواقع أحلى بكثير... بكثير جدًا، ولا أريد أن أخرج من هذا التجلي الذي أعيشه الآن"

ـ "لا! أنا التي لم تعد تحتمل، أشعر أني سأنفجر الآن!"

نهضت واقفة في ضجر

ـ "بالله عليك لا تفعلي! كيف أحرم من هذا النور المتلألأ في عينيكِ الزرقاوين الرائعتين!؟ اجلسي من فضلك!"

جلست ضائقة، زائغة العينين شاردة، ثم قالت بانفعال:

- "صدقني أنت لا تشعر بي، أنا بالفعل لا أحتمل! أنت تستفزني، أشعر بقلبي يخفق بشدة، هذا الجو الأسطوري يصيبني بالغثيان، أرجوك عد إلى الواقع، ولو لبعض الوقت"

- "كما تشائين، موعدنا مساء الخميس بعد القادم، ليضيء نور عينيكِ كل حياتي إلى الأبد"

- "مع من اتفقت على ذلك يا خطيبي العزيز!؟"

- "ها أنا أتفق الآن معك، وإذا وافقت فسأذهب لوالدك على الفور، وأتفق معه"

- "ألم أقل إنك مجنون!؟"

- "بك يا عزيزتي"

صمتت، وجعلت تنظر إليه وتتأمله، فقال باسمًا:

- "ما لكِ لا تتحدثين؟"

- "هيا بنا!"

نهضت، ونهض أيضًا.

توقفت أصوات الموسيقى والدفوف، وأغلق العروسان الباب عليهما، كانت فَرِحةً فَرْحة حقيقية؛ لأنها قررت بينها وبين نفسها أن تطرد عن رأسها كل الوساوس والشكوك التي تُكدر صفو ظنها بزوجها الذي لا تعيب عليه إلا ولهه بجمال عينيها، وإسرافه في التغزل بهما.

وفي بهو الشقة كان أول ما قاله لها:

- "ألم أقل لكِ مساء الخميس؟"
ابتسمت في خجل، فأردف يقول:
- "لقد أعددت لكِ مفأجأة رائعة، جعلت مهندس الإضاءة يعد لنا أضواء ملونة خافتة، ستجعلك تعيشين في ذاك القصر السحري الذي كنت تتحدثين عنه"
ازدادت ابتسامتها اتساعًا، ثم أغمضت عينيها للحظات، فتحتهما بعدها، ونظرت إليه وبريق رائع يشع منهما، فقال:
- "هذا هو الضوء الذي سأعيش به"
ثم جذبها من يدها سريعًا، ووقف أمام الحجرة، وقال:
- "استعدي يا مولاتي لدخول قصرك السحري"
وفتح الباب، ودخلا، ثم قال:
- "أغمضي عينيك الآن لأبدأ مراسمي الخاصة للاحتفال بك،
وبدأ يغير الإضاءة في الحجرة، فقالت في صوت ضعيف:
- "ما هذه الأضواء الغريبة!؟ آه! إنها تؤلمني"
قال في مرح:
- "ألم أقل أغمضي عينيكِ!؟"
- "سأفعل"
وبعد أن أتم عمله، وتحولت الحجرة إلى إضاءة خافتة ملونة قال:
- "افتحي عينيك يا مولاتي"

قالت في دلال من يتعجل انتهاء لعبة مسلية:
ـ "لماذا لم تشعل أضواءك الأسطورية؟"
ـ "لقد فعلت يا مولاتي"
ـ "كف عن هذا اللفظ؟ كثيرا ما أخبرتك أنني لا أحتمل هذه الألفاظ؟"
ـ "كل النساء تسعدن بالغزل إلا زوجتي"
ـ "من قال ذلك؟ أريد أن أشعر بالسعادة في زمني، بمفردات عصري، وألفاظ جيلي، وأنا في أتم إحساس بالراحة، فالسفر في الزمن يصيبني بالإرهاق، أريد أن أسمع غزلًا صادرًا من عقلك وقلبك أنت، وليس من كتاب (ألف ليلة وليلة)"
فاقترب منها، وقال في حنان وهويمسك ذراعيها بيديه:
ـ "كل ما تأمرين الليلة مجاب يا حبيبتي"
انتبهت إليه، وقالت قلقة:
ـ لماذا لا تضيء الأنوار حتى أراك؟"
فزع وجحظت عيناه، واحمّر وجهه بشكل مخيف لهول الخاطر الذي خطر له، ثم حاول أن يطرد الفكرة، كل ذلك في ثوان لوح بعدها بكفه أمام عينيها المفتوحتين، فلما لم تبدِ أي تعليق أو انتباه شهق في فزع، فقالت مضطربة:
ـ "ماذا بك؟ قلت لك أريد الحجرة مضاءة"
فهرع مسرعًا نحو الضوء الأصلي، وتمتم في توتر:

- "سأفعل! سأفعل!"

أضاء الحجرة بالضوء الأبيض المألوف، وسمعت هي حركة المفتاح، فقالت وقد سيطر التوتر عليها:

- "هل فعلت؟"

- "نعم"

صرخت في فزع رهيب، وقد توالى شهيقها المضطرب، وصعدت الدموع لعينيها:

- "ولكني لا أرى!... لا أرى شيئًا!!"

صرخ هو الأخر، ولم يستطع التحمل أكثر من ذلك، سمعت صوت بكائه، فقالت وهي تواصل البكاء المؤلم:

- "لقد انطفأ نور عيني... انطفأ النور الذي سيضيء حياتك كلها"

هرع نحوها وهو يصرخ في ضعف:

- "لا!... لا!... لا تقولي ذلك!... لا تقولي ذلك! ستبصرين.. ستبصرين"

وأسند رأسها إلى كتفه، وواصلا البكاء.

٢٠٠٠/٨/٦

(11)

أشلاء

كان بإمكانه ألا يسمعها، لكن الشاب الواعد أنصت للصوت الشارد:

ـ "قلت له: "علمني.. علمني أن أحمي أبنائي.. أن أحمي نفسي.. أن أحمي كهفي".. لكن كلامي لم يستهوه، قال: "حمايتكم دوري، ابقي فى الكهف، ولا تهتمي إلا بشؤون الأبناء".. قلت له: "أنت تغيب طويلاً في الأدغال، والذئب الجائع لن ينتظر قدومك كي تحمينا، لن يرحم جهلي.. علمني".. لم يأبه بي ومضى، وأتى الذئب الجائع... عاد عشياَ ليرى فاجعتي، فبكى، وبكى، واعتذر طويلًا عن سوء التقدير، منَّاني أن نبدأ ثانيةً ما دام القلب النابض فينا موجودًا، لم يفهم أني جوفاء، أعياه الإرهاق فنام.. استيقظ ليراني أشلاء"

كان الحقل ملاذي الآمن من أحكام حماتي بالبيت، لم آبه يومًا بالعمل الشاق، تحت الشجرات الوارفة أقمنا (الضليلة)، وغفونا في القيلولة، هدهدت صغيري جانب النهر، وعدونا بطول الشاطئ، وتعالت منا الضحكات، سمعتنا زوج الحاكم وهي تمر بموكبها فاستدعتنا، طلبت أن أخدم بالقصر فأبيت، أخذوه.. ثم

أعادوه... قال وقد طأطأ رأسًا: "تحايلت طويلًا كي أحفظ بيتي الهادئ هادئًا.. كي أمنع حربًا غير مجدية بين أمي وزوجي، لكن كيف أحايل زوج الحاكم.. كانت زوج الحاكم عاقر"

أرهقه التفكير فنام.. استيقظ ليراني أشلاء.

في عهد المجد الخالد صار كبيرًا... علمني كل الأشياء، كان فخورًا مبهورًا بي، لكن عين الحاسد لم تتركنا، ولسان الواشي لم يفلتنا، وضغينة قلب الحاقد لم تحرمنا فريتها، في محبسنا قال بأنه يثق بأني أطهر أنثى، ويقدر محنتنا، قلت له: "دعني.. أعرف كيف أدافع عن نفسي".. فبكى وحياء العالم يوجعه، وقال لي: "إن كلام الناس لجارح".. نام، واستيقظ ليراني أشلاء.

فى عهد المجد الزائف صار الحاكم، قلت له: "صرتَ الحاكم والمستهدف، علمني... علمني كي أحمي أبنائي.. كي أحمي نفسي، وأحميك".. قال: "عينت لكِ هذا حارس، هذا سائق، هذا طاه، وهذي خادم".. قلت له: ـ "لكن الذئب الجائع لا يعرف فرقًا بين غياب الساعي في الأدغال وبين غياب الحاكم".. قال: ـ "لا ترهقي نفسك في التفكير.. أحضرتُ لكِ حوض السمك لتتسلي، فأنا سأغيب طويلًا.. فأنا مشغولٌ جدًا.. فأنا الحاكم"

علا صوت الشاب الواعد يملي:

ـ "تحول المذكورة إلى مستشفى الأمراض العقلية والنفسية، لإبداء الرأي بشأن قواها العقلية، وحالتها النفسية"

ـ "كنت أظنك مختلفًا أيها القاضي"

حاول أن يخفي عن عينيها العاتبتين دموعًا فرت من عينيه، ووجهًا واجمًا، فأبت إلا أن تكمل ما اقتطع بنفس الصوت الشارد: ـ "كانت صورة ذاك الشاب الواعد إلى جانب صورة أشلائي تتصدر صحف اليوم التالي"

ـ "سيدتي! سيدتي! استيقظي يا سيدتي! أسماكك فى الحوض تنادي من يطعمها"

ـ "هل نمت طويلًا؟ كنتُ أحلم"

ـ "خيراً إن شاء الله، هذه أول مرة تتأخرين فيها في النوم إلى هذا الوقت منذ الحادثة المشـ...ؤ...و...مـ...ة"

تبعثرت الأحرف فوق لسان الخادمة المفزوعة وهي تزيح ستار النافذة ليملأ ضوء الشمس الغرفة، تركت ما فى يدها، وجرت خارجة وهي تتمتم لنفسها: "(يقطعني)"

قامت سيدة البيت، ومضت نحو الحوض تحادث أسماكه:

ـ "هل جعت كثيراً يا سمكي؟ يومًا سيكون فطورك أشلائي، لكن لا تأمل أن تحظَ بقلبي، فأنا أطعمتُ القلبَ الذئبَ الجائع.. كي لا تهضمني وبَنِي نفس الأمعاء"

٢٠١٥/٨/٦

(١٢)

ذبابة واحدة.. لا أكثر

الحجرة مضاءة... النافذة نصف مفتوحة.. يجلس إلى مكتبه مستندًا بمقعده إلى الجدار واضعًا قدميه لأعلى فوق المكتب، فبدا جسده كضلعين لزاوية منفرجة.. الكتاب بين يديه منهمك فى قراءته.

قام من جلسته، أخذ يقرأ بصوت مرتفع، يذهب ويجيء في الحجرة، خرج بالكتاب إلى السطح ليستنشق هواء الليل الرطب مستترًا بظلام المكان، معجبًا بتلألؤ المصابيح المضاءة في المنازل، والحارات، والشوارع. أحس كأنما يرى المكان لأول مرة، مضت بضع دقائق، ثم دخل حجرته نشطًا، جلس إلى المكتب، وواصل المذاكرة. مر وقت، الهدوء يحيط بالمكان إلا من أصوات بعيدة تصدر من أماكن متفرقة، لتقطع سكون الليل، وتشير إلى استمرار الحياة، ليست بذات بال لتزعج أحدًا.

فجأة دارت حول رأسه ذبابة، حاول إبعادها بيده، ابتعدت، ثم عادت، حاول ثانية، ابتعدت، ثم عادت، حاول تجاهلها.

ـ "يا للعجب! ذبابة في مثل هذا الوقت من الليل!؟ ومازالت مستيقظة!؟"

لمعت عيناه، وعلت شفتيه ابتسامة عابرة عندما مرت تلك العبارة بخاطره. حاول إبعادها مرة أخرى، وعاد لكتابه، ولكن الذبابة لم تستسلم، أصرت على الدوران حول رأسه، والطنين بجوار أذنيه، تستمتع بالوقوف على كتبه حينًا أو على مكتبه، أو تتسلى بالوقوف على ذراعيه أو جبينه، ولا مانع من الاستراحة فوق رأسه. تنهد ضائقًا من تلك الحشرة التى أبت إلا أن تقتحم خلوته.

تذكر مبيدًا حشريًا كان قد اشتراه أول عهده بالسكن في هذه الحجرة، لكن للأسف لن يستطيع استخدامه في هذا الوقت؛ فهو يختنق من رائحته بشدة، ولا يمكن أن يترك الحجرة الآن. أغلق الكتاب، ووضع القلم الذي بيده، ثم أسند وجهه للمكتب أمامه، ونظر نحو النافذة يتأمل هذا الظلام الموحش وتلك الأضواء الباهتة التي تأتي من بعيد.

ـ "ما الذي أتى بها؟ ما الذي يغريها في حجرتي بل فى السطح كله؟ لديها (المنور) المجاور بكل قمامته وقذارته، وكيف أطردها؟ وكيف أقاومها؟ آه! أأترك كل تلك الكتب، وأفكر فى أمر ذبابة!؟"

هكذا حدثته نفسه، ثم استدار بوجهه نحو الحجرة، فرأى الذبابة تقبع فى طرف المكتب، أمسك الكتاب فى غيظ، وحاول ضربها، مرة.. اثنتان... ثلاث... أربع... عشر، لم يمل بعد، ولكنها

كانت أسرع وأبرع... قال في غيظ وهو يضم شفتيه، ويحرك قدميه في قلق:

ـ "وهل سأنتصر على قرون استشعارك!؟"

رأى الذبابة تحوم حول المصباح، أمسك بجلبابه، ثم قفز نحوها محاولًا طردها، راوغته، يقفز إلى موضعها، تتجه كالضوء إلى الجانب الأخر، يوجه نحوها الجلباب، تختفي، ثم تظهر، يعيد الكرة، تختفي، ثم تظهر، كلما ظن أنه أوقع بها ظهرت له من جديد، ظل يجري في الحجرة، ويجري وقد أمسك بطرفي الجلباب كل في يد، و الذبابة تعلو وتهبط.. تظهر وتختفي، وهو يجري ويجري.. مرات ومرات، ثم توقف فجأة، ونظر للجلباب بين يديه.. تأمل حاله التي هو عليها في الحجرة، إنه أشبه بمصارع ثيران.. أجل، إنه الآن فى أرض الحلبة يطارد الذبابة بجلبابه الأبيض، لكنها دائمًا تنتصر.

عاد لمقعده، وقد أغاظه الفشل، إنه يسمع صوتها، لم تمضِ سوى لحظات، ورأى الذبابة تقف فوق المكتب، فأمسك بالكتاب، وحاول ضربها، لكنها فرت.. حاول مرة أخرى، ففرت، فثالثة، فرابعة. والذبابة لا تزال تفر وتراوغ... ألقى الكتاب في سأم، ثم شرع يفكر فيما كان يفعل.

يا للأنانية! إن ما أحدثه من إزعاج يفوق مرات ومرات ما تحدثه الذبابة. ترى ماذا سيقول سكان الطابق الذي يعلوه

الآن؟ أتراه أيقظهم من نومهم؟ إن الساعة متأخرة من الليل..
لم يكد يتم مناجاته لنفسه حتى سمع صوت باب يفتح، ثم يغلق، صوت خطوات على السلم.. آه! لقد استيقظ السكان بالفعل، ماذا سيقول؟ لا يعرف...إنه كان....
دق باب حجرته، قام ليفتح والخجل يعصره.. نعم.. إنه هو.. الساكن الذي يقطن الشقة أسفله، لم ينبت ببنت شفه، فبادره الرجل والغيظ ينطلق كالشرار من وجهه:
ـ "ما هذا الإزعاج!؟ ألا تعرف أن هناك سكان نائمون!؟ قوم يعملون طوال النهار، ويريدون أن يستريحوا ليلًا!؟ أما تدري أن هناك تلامذة يذاكرون، ويحتاجون لهدوء!؟"
وانطلقت كلمات الرجل تتتابع كالقذائف النارية في وجهه، فبهت لما يسمعه؟ فلما فرغ الرجل من كلامه اعتذر في ارتباك، وقال:
ـ "لقد كنت أطارد فأرًا يا سيدي، فأعذرني"
فنظر إليه الرجل نظرة كالصاعقة، ارتعد لها بدنه، وقال في غيظ وضيق ممزوج بالتهكم:
ـ "فأر!!..... رجل طويل عريض مثلك يخاف من فأر!؟ عيب!"
ثم استدار، وانصرف مسرعًا، و الفتى لا يزال فى مكانه لا يعرف ماذا يفعل، ثم انتبه بعد قليل، وأغلق باب الحجرة، وعاد لسريره، وأطفأ المصباح، وجعل يحادث نفسه:

ـ "أهانني واحتقرني من أجل فأر! ماذا لو علم أنها ذبابة!؟ ربما اتهمني بالجنون!"

استلقى على سريره، فغلبه النوم؛ فالليلة كانت المعركة حامية الوطيس بينه وبين الذبابة، وما أكثر ما صال و جال فى ميدان حجرته! يراوغ تلك الذئبة المفترسة التي تحتل مسكنه.

عندما ذهب للجامعة في الصباح بدا عليه الإعياء، فسأله زملاؤه عن السبب تردد قبل أن يخبرهم بالحقيقة، ثم ضحك فجأة فى رنة سخرية ممتزجة بالحسرة، وحكى لهم، فأغربوا في الضحك، وأمطروه بتعليقاتهم الساخرة، فما كان منه إلا أن ذكرهم بالنمرود.. كيف عاقبه الله بحشرة صغيرة دخلت من منخره لرأسه، فما كان يهدأ حتى يضرب على رأسه بالنعال، فيغرق الزملاء ثانية في الضحك من زميلهم الذي ارتدى عباءة الحكمة، ومن ذبابته التي أحيت بذاكرته ما تغبر من عظات التاريخ.

وعندما عاد لم يستطع مقاومة تذكر تلك التعليقات اللاذعة، وكيف أطلق عليه أحدهم "فتى الذبابة".. واقترح عليه آخر أن ينضم لجماعات حماية البيئة، وأن يتبنى مشروع مكافحة الذباب، وأقسم له أنهم عندئذ سيستضيفونه فى التلفاز، ويجعلون منه بطلًا قوميًا صاحب رسالة، وكيف أخذت الحماسة آخر فأخذ يشرح لهم أصل تسمية الذباب، وأنه سمي

ذبابًا لأنه كلما ذب أي طرد آب أي رجع وعاد. و كيف قال له أحدهم أن الذبابة ما هي إلا حجة ليهرب من المذاكرة، وأن مواجهة النفس أولى من هذا الهراء، أحس بالظلم فى هذا الادعاء، فقد كان فى أفضل حالات اندماجه مع الكتاب قبل ظهور الذبابة.

قرر أن يكف عن التفكير فى تلك الذبابة الحمقاء التي بالغ كثيراً في الاهتمام بها، وبدأ المذاكرة الجديدة، مر عليه الوقت حتى كاد ينسى بالفعل أمر الذبابة، لولا أن سمع طنينها آتيَا، فلم يفكر حتى ماذا يفعل، وإنما هم بترك المنزل لولا كلمات جاره واتهامات زملائه، قرر تجاهلها.. مرة.. اثنتين.. ثلاثة.. حتى عشرين مرة، ثم شعر أنه سيتهور حتمًا مثل الليلة الماضية، وأنه إما قاتل أو مقتول هذه الليلة، فقد بلغ به الغيظ مبلغه، وقبل أن يبدأ في المطاردة من جديد، تذكر توبيخ جاره، فاستعاذ بالله من الغضب، وترك لها الحجرة و مضى.

قابله بواب العماره نازلًا ينفث غضبًا، فسأله متعجبًا مفزوعًا:

ـ "ما الذي يجعلك تترك الحجرة هكذا في منتصف الليل يا أستاذ!!؟ ماذا حدث!!؟"

ـ "في الحجرة وحش مفترس"

حملق الرجل نحوه، فاستدار إليه الفتى وكان قد هم بالسير، وقال:

- "لا تهتم إنها مجرد ذبابة واحدة.. لا أكثر"

بعد عدة خطوات، عاد وأعطى البواب ما في جيبه من جنيهات، وطلب منه أن يشتري سلكًا، ويثبته على النافذة، طالبًا منه التأكد من خروج كل الذباب من الحجرة أولًا. فنظر إليه الرجل نظرة من يشك في قواه العقلية، ثم قال ناظرًا لما بين يديه من جنيهات:

- "أوامرك يا أستاذ"

فتركه، وأكمل الليلة سائرًا في شوارع المدينة.

١٩٩٨/٨//٢٩

الفهرس